صورة النبي – صلى الله عليه وسلم– في تائية ابن الخلوف القسنطيني .

تاريخ استلام المقال: 2015/11/19 تاريخ قبول المقال للنشر 2016/11/27

د.حنان بومالي

المركز الجامعي ميلة

الملخص:

لما كان الشعر الجزائري فرعا من أصل هذا الشعر العربي، فإنه لم يكن بمنأى عن شعر المولديات وشعر المديح النبوي، لذلك تستمد هذه المقاربة شرعيتها في كشف صورة النبي – صلى الله عليه وسلم– في شعر أحد أكبر الشعراء الجزائريين ممارسة للمديح النبوي ونظما له، وهو **ابن الخلوف القسنطيني**، وذلك بالوقوف عند الآليات اللغوية والأسلوبية والبلاغية التي استطاع بواسطتها هذا الشاعر أن يرسل خطابه إلى المتلقي ويحسسه بمدى حبه وتعلقه بالرسول – صلى الله عليه وسلم–، ولقد اخترنا هذه التائية دون غيرها من قصائد ابن الخلوف لأنها مكثفة بجملة من الرموز اللغوية التي تحيل إلى جمال مطلق، وملأى بالثنائيات التي تعزز الحب والعشق النبوي، لتشكل توهجا شعريا ونصاعة لغوية وإبداعا شعريا متميزا متفردا في خطابيته وصوفيته ورومانسيته.

Abstract:

Algerian potery has developed a speacial genre of potery known as eulogy of the prophet. One Algerian poet developed this genre through his remarkable eulogizings. Certain poetic and linguisitc styles accomodate his eulogies.

مقدمة:

إن الشعر هو ذلك الفن الذي يصدر عن الوجدان، وهو ترجمة لكل ما اختلج في ذات الشاعر من عواطف وإحساسات، وقد يكون ترجمة على لسان الجماعة وعن مختلف عواطفها ومواقفها الخاصة والعامة، كالفرح والطرب والحزن والغضب... وغيرها، وكلها أحاسيس إنسانية رسمت أغراض الشعر وتوجهاته وأصنافه.

ويعد المديح النبوي من أهم أصناف الشعر التي اهتم بها الشعراء منذ ظهور الرسول الأعظم– صلى الله عليه وسلم–، ودعوته إلى وحدة العرب واجتماعهم تحت دين واحد وراية واحدة، وبلغ بذلك منتهى المديح العربي، لأنهم جمعوا في مدائحهم الكرم والعفو والتسامح والشجاعة والوقار والسيادة والقداسة في شخص النبي الكريم– صلى الله عليه وسلم–.

لهذا جاء مسعى هذه الدراسة من أجل الوقوف عند عمق التجربة الشعرية على مستوى خطاب تائية ابن الخلوف القسنطيني، وقدرتها على إجلاء مكامن الجمال الحسي الذي ينماز به رسولنا – صلى

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الله عليه وسلم–، هذا الجمال المحمدي الذي فاق كل جمال بشري، جعل الشاعر يمارس العشق الصوفي وحالاته من أجل التقرب منه والحصول على عفوه وشفاعته للنجاة يوم الحساب. وللإجابة عن هذه الإشكالات توزعت هذه الدراسة على ثلاثة نقاط:

أولا– مفهوم الصورة.

ثانيا– مقاربة إجرائية لتائية ابن الخلوف القسنطيني.

ثالثا– البنية الدلالية لخطاب القصيدة

لقد تغيرت النظرة إلى الشعراء والشعر في ظل الإسلام، ففي عهد الرسول– صلى الله عليه وسلم– أحاط الشعراء بالعقيدة الإسلامية، وأخضعوا موهبتهم للدعوة، وانطلقوا في ميادين قول جديد بعد أن استثارهم الرسول – صلى الله عيه وسلم–، ومنحهم رخصة قول الشعر انطلاقا من العقيدة، فعن أبي بن كعب أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– قال: «إن من الشعر لحكمة»[1]، وعن الأسود بن قيس قال: سمعت جندبا يقول: بينما النبي – صلى الله عليه وسلم– يمشي إذ أصابه حجر فعثر فدميت إصبعه فقال:

«*هل أنت إلا إصبع دميت *وفي سبيل الله ما لاقيت.»[2]

ومواقف الرسول – صلى الله عليه وسلم– هذه إيذان وإعلان بقبول الإسلام للشعر الملتزم بمبادئه، الصالح بأنواره وقيمه، ثم إن تضافر الموهبة الشعرية مع العقيدة الصحيحة، هو الذي جاء بهذا الشعر المفعم بهموم المسلمين، وقضايا الدين، مستثارا من هذا الوعي الجديد والعبء الجديد، لا من شياطين وادي عبقر.[3]

ولعل دعم الحبيب المصطفى – صلى الله عليه وسلم– للشعراء ومديحه لهم، هو ما جعل الموالين له يقفون موقف المدافعين عنه وعن رسالته، فقد امتدحوا خصاله وشمائله، وكان مديحهم أشبه بمديح الأجواد والكرماء من رؤساء القبائل، وللشعراء الجزائريين باع في ذلك، سواء من العصر الحديث أو القديم، حيث برز عدد لا يحصى من الشعراء الفحول ممن نذروا أقلامهم لمدح الحبيب المصطفى– صلى الله عليه وسلم– وسرد سيرته الطاهرة، حتى بلغوا منتهى المديح العربي.

أولا– مفهوم الصورة.

1– لغة.

---

[1]– محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي: صحيح البخاري. مج3. تح: مصطفى ديب البغا. دار ابن كثير: بيروت. ط3. 1987م. كتاب الأدب ما يجوز من الشعر الرجز والحذاء وما يكره منه. رقم الحديث 6145. ص1382.

[2]– المرجع نفسه. رقم الحديث 6146. ص1382.

[3]– كاميليا عبد الفتاح: الأصولية والحداثة في شعر حسن محمد حسن الزهراني "دراسة تحليلية نقدية". دار المطبوعات الجامعية: الإسكندرية. ص9–10.(بتصرف)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ورد في لسان العرب: «صور من أسماء الله تعالى: المصور هو الذي صور جميع الموجودات، ورتبها فأعطى كل شيء منها صورة خاصة وهيئة مفردة يتميز بها على اختلافها وكثرتها، والجمع صُوَرٌ وصِوَرٌ وصُوْرٌ، وقد صوره فتصور، وتصورت الشيء: توهمت صورته فتصور لي، والتصاوير التماثيل.

وقال ابن الأثير: الصورة ترد في كلام العرب على ظاهرها، وعلى معنى حقيقة الشيء وهيئته وعلى معنى صفته، يقال صورة الفعل كذا وكذا أي هيئته، وصورة الأمر كذا وكذا أي صفته.»[1]

والمعنى نفسه يقرؤه المتلقي في المنجد، حيث ورد «صورة: جمع صور، هيئة، شكل، صورة بشرية... صنع الله الإنسان على صورته: رسم، كتاب مزين بالصور.»[2] يتضح من هذه التعاريف أن الصورة تعني الشكل والهيئة التي يتميز بها الفرد عن الآخرين، بمعنى أن هاذين المعجمين يركزان على الجانب الحسي دون المعنوي.

2- اصطلاحا.

فكر الإنسان قديما عن طريق الصورة وترك على جدران كهوفه هذه اللغة الأولى التي عبر من خلالها عن خوفه ودهشته وأمله في غد أفضل، وكانت الصور الحروف الأولى للغة الإنسانية تدلنا على تلك المعابد التي لا تزال تحتفظ بآثار هذه اللغة، وهناك نظرية قديمة ترجع أصولها إلى فيكو تقول: « إن الإنسان يشكل أفكارا خيالية قبل أن يشكل أفكارا عامة، وأنه يدرك الأشياء إدراكا مشوها قبل أن يصل إلى مرحلة التفكير في هذه الأشياء تفكيرا منظما...، وأنه يستخدم الاستعارات قبل أن يستخدم الألفاظ الاصطلاحية، وأن استخدامه للألفاظ استخداما استعاريا هو بالنسبة إليه شيء طبيعي.»[3]

ويعرف عبد القاهر الجرجاني الصورة بقوله: « اعلم أن قولنا الصورة، إنما هو تمثيل وقياس لما نعلمه بعقولنا على الذي نراه بأبصارنا، فلما رأينا البينونة تبين آحاد الأجناس تكون من جهة الصورة، فكان بين إنسان من إنسان وفرس خصوصية تكون في صورة هذا لا تكون في صورة ذاك، وكذا الأمر في المصنوعات فكان بين خاتم من خاتم، وسوار من سوار بذلك، ثم وجدنا بين المعنى في أحد البيتين وبينه في الآخر بينونة في عقولنا وفرقا، عبرنا عن ذلك الفرق وتلك البينونة بأن قلنا: للمعنى في هذا صورة غير صورته في ذلك.»[4]

---

[1]- ابن منظور: لسان العرب. ج7. تح: خالد رشيد القاضي. دار صبح: بيروت. ط1. 2006م. مادة (ص،و،ر).

[2]- صبحي حموي: المنجد في اللغة العربية المعاصرة. دار المشرق: بيروت. ط2. 2001م. ص861. مادة (ص،و،ر).

[3]- عز الدين إسماعيل: الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية. ط3. دار العودة ودار الثقافة: بيروت. 1981م. . ص190-191.

[4]- عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز. تح: محمد عبده. دار المعرفة: بيروت. 1978م. ص175-176.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يقرن عبد القاهر الجرجاني بين الصورة والعقل، أي أن الصورة في مفهومها قياس بواسطة العقل لما نراه بأبصارنا وتقع عليه أنظارنا، حيث يستطيع العاقل أن يميز بين الأشياء من الجنس نفسه أو من جنس آخر بواسطة العقل، وكذلك الحال مع المعاني، إذ نميز بين ما حسن منها وما استقبح، وكل هذا التمييز يكون عن طريق إعطاء صورة لكل منهما.

والتعبير الصوري ليس مرحلة أولى من مراحل التفكير الإنساني، بل إنه عند بعض علماء الجمال أساس الإدراك الإنساني الذي يقوم بالإدراك على التخيل، خاصة وأننا « نعيش على الإدراك الاستعاري في تعلقنا وتخيلنا، في يقظتنا ونومنا، إن الخيال الإنساني جزء هام من الوجود، وبينه وبين الأشياء انسجام ضروري.»[1]

ولأن الشاعر إذ يمتلك الخيال والوجدان يمتلك القدرة التصويرية، فإن إحسان عباس يربط الصورة بالشعر، فيرى « أن الصورة ليست شيئا جديدا، لأن الشعر قائم على الصورة منذ أن وجد حتى اليوم، ولكن استخدام الصورة يختلف من شاعر إلى آخر، كما أن الشعر الحديث يختلف عن الشعر القديم في طريقة استخدام الصور.»[2]

وعليه يتضح مما سبق أن الصورة موجودة منذ القدم، ولقد ارتبطت بفن الشعر، لأنه يقوم عليها، ولأنه يصور المرئيات والمشاهد عن طريق الخيال، فيؤلف بينها علاقات يراها وحده، ووفق رؤيته للحياة؛ ثم يوحد بين هذه الأجزاء جميعها توحيدا عاطفيا دالا على تجربته الكلية أو ممتدا إلى تجارب أخرى، وتسعى هذه الدراسة الى الكشف عن صورة النبي – صلى الله عليه وسلم– في شعر أحد أكبر الشعراء الجزائريين ممن اهتموا بمجال مدح الحبيب المصطفى المختار، وعكفوا على تتبع خصاله وسيرته ومناقبه.

ثانيا– البنية الفنية للقصيدة.

كثر الشعراء الذين مدحوا الرسول – صلى الله عليه وسلم– على مر العصور منذ حسان بن ثابت الأنصاري حتى اليوم، حتى إن « الدكتور محمد أحمد درنيقة صنف كتابا وسمه بعنوان "معجم أعلام شعراء المديح النبوي" أثبت فيه أربعا وخمسين وأربعمائة شاعر.»[3]، ومن هذا التراث الغني في مدح الحبيب المصطفى –صلى الله عليه وسلم– اخترنا شاعرا من المغرب الأوسط " الجزائر"، لنبين صورة مدحه للرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم–، وهو **ابن الخلوف القسنطيني** في تائيته المشهورة.

من خلال العودة إلى المتن الشعري لابن الخلوف القسنطيني الذي نحاول منه استنطاق صورة الممدوح النبي – صلى الله عليه وسلم–، نجد أن الشاعر قدم مدحا غزليا يحيلنا على المقدمات الغزلية

---

[1]– مصطفى ناصف: الصورة الأدبية. دار الأندلس: بيروت. ط3. 1983م. ص7.

[2]– إحسان عباس: فن الشعر. دار بيروت: لبنان. 1955م. ص230.

[3]– إميل ناصف: أروع ما قيل في مديح الرسول. دار الجيل: بيروت. ص4.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

التي اعتادها القارئ في المدونات الشعرية القديمة، والحقيقية أن هذا الغزل له علاقة بالتجربة الروحية التي يريد الشاعر أن يتحدث عنها وبالفكرة التي يريد أن يوصلها للقارئ أيضا، حين يقول:

*لَمُرْسِلِ الصَّدْغِ فِيخَدَّيْهِ آيَاتُ *وَلِلْعَذَارَى حَدِيثٌ صَحَّ مُسْنَدُهُ

*وَلِلْجَيْشِ هِلَالٌ تَمَّ نَيْرُهُ *وَلِلثَّنَايَا عَذِيبٌ لَاحَ بَارِقُهُ

*وَلِلْحَوَاجِبِ نَوْنَاتٌ مُعَرَّقَةٌ *وَ لِلْوَاحِظِ كَرَّاتٍ يَفِرُّ لَهَا

*وَ لِلْمَعَاطِفِ أَفْنَانٌ فَتَيْتُ بِهَا *مَلِيكُ حُسْنٍ تَرَاءَ فَوْقَ وَجْنَتِهِ

*وَافَتْ إِلَيْنَا بِعَزْمِ الوَسْلِ مُقْلَتُهُ *وَصِرْتُ أَرْجُو اهْتَدَا قَلْبٌ تُضَلِّلُهُ [1]

إن الوجهة الحقيقية للقصيدة تتضح منذ البداية، حين يعلن الشاعر في هذا المطلع أن الغزل موجه للحبيب – صلى الله عليه وسلم– دون سواه، إذ يعتقد المتلقي أنه يغازل محبوبته و يصف جمالها الحسي، غير أن الدوال (آيات، حديث صح مسنده، الجيش) تحليل إلى غير هذا المعنى، حيث إن لفظة "حديث صح مسنده" تشير إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم–، فهو الذي اختص بالحديث على اختلاف أنواعه التي صنفها علماء علم الحديث.

ثم إن لفظة "الجيش" تحمل دلالة تعلن عن توجه الشاعر بغزله إلى الرسول الكريم– صلى الله عليه وسلم– وليس إلى المرأة، لأن لا صلة بين المرأة والحروب، في حين أن هناك رابط موضوعي وقيمي بين الرسول – صلى الله عليه وسلم– والجيش، فهو الذي قاد الجيوش الإسلامية لنشر العقيدة الإسلامية والرسالة النبوية في جملة من الغزوات والفتوحات أيضا .

وإذا كانت شعرية أي نص تتبع أساسا من خلق فجوة ومسافة توتر بين مكونات هذا النص على صعيد اللغة أو الرؤيا أو الإيقاع أو الموقف الفكري،[2] فإن توليد الشعرية عن طريق توظيف الغزل الحسي في قصيدة مدحية يحتم على الشاعر خلق فجوة ومسافة توتر على صعيد من هذه الأصعدة في نصه عبر هذا التوظيف، وإلا ظل حضورها مجرد ديكور ووصف خارجي، وهذا ما نلمسه في مطلع تائية ابن الخلوف، حين يصف ثنايا وحواجب ولواحظ الرسول – صلى الله عليه وسلم– وصفا غزليا حسيا يخلق مسافة توتر لدى القارئ.

لقد وصف الشاعر صدغ محبوبه بأن فيه آيات تميزه عن غيره، والمعلوم فيزيائيا أن الصدغ (جانبي الرأس) هو مركز الذاكرة ومركز التفكير، لذا يجيب في الشطر الثاني من البيت عن هذه الآيات التي ينماز بها صدغ النبي – صلى الله عليه وسلم–، وهو أنه أوتي جوامع الكلم واختص بعلم الحديث الذي صح مسنده دون غيره من البشر.

---

[1]– ابن الخلوف القسنطيني: ديوان حني الجنتين في مدح خير الفرقتين .تح: العربي دحو . اتحاد الكتاب الجزائريين : الجزائر. 2004م.ص 315.

[2]– كمال أبو ديب: في الشعرية. مؤسسة الأبحاث العربية: بيروت. ط1. 1987م. ص20–21.(بتصرف)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يواصل ابن الخلوف وصفه الحسي في الأبيات الأخرى مبينا بريق الأسنان (الثنايا) الذي استمد لمعانه من الماء المتخلل لها (عذيب)، ودقة الحواجب التي أشبهت حرف النون لشدة تقويسها، وقد علتها شامة معرفة له دون غيره، أما العيون (اللواحظ) فهي شديدة الملاحظة دقيقة النظر يفر منها العدو في الحروب، وأما المعاطف فقد جعلت من الممدوح مليك حسن يتبدى حسنه فوق وجنتيه، وفي هذا الوصف الحسي دلالات مغايرة تخدم روح التجربة، لأنه ليس وصفا من أجل الوصف فقط، وإنما فيه دلالة على تفرد النبي – صلى الله عليه وسلم– في خلقته على بقية البشر، وهذا من دلائل نبوته.

ويقف المتلقي لتائية ابن الخلوف على وصف حسي غزلي آخر، يركز فيه الشاعر على ثغر الحبيب المصطفى – صلى الله عليه وسلم– ليبين أنه لا يتكلم إلا صدقا وعدلا وحقا، ولأنه موطن التبليغ النبوي للرسالة الربانية التي كلفه المولى – عز وجل– بها، كما في قوله تعالى: «وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَ وَحْيٌ يُوْحَى» النجم آية 3–4. ويتجلى هذا الوصف في الوحدة الشعرية الموالية للمطلع، حين يقول:

*مُفْضَضُ الثَّغْرِ فِي دِينَارِ وَجْنَتِهِ *شَهْدٌ، وَرَاحٌ، وَسِلْسَالٌ وَعَنْبَرَةٌ
*كَأَنَّهُ غُصْنٌ بَانَ حَامِلُ فُلْكِ * أَصْدَاغُهُ عَطَفَتْ نَحْوَ الهَوَى كَبِدِي
*غُصْنٌ يَمِيلُ إِلَى الوَاشِي وَلَا عَجَبٌ *يَا كَمْ أَمَالَتْ قَسِيمَاتُ الدَّلَالِ وَهَلْ
*وَكَمْ ثَنَى أَلِفَاتِ الوَصْلِ مِعْطَفُهُ *مَا كُنْتُ أَعْرِفُ لَوْلاَ سِحْرُ مُقْلَتِهِ
*وَلَا تَحَقَّقْتُ لَوْلَا لَيْنُ قَامَتِهِ *أَصَالَ أَوْ غَضَّ إِلَّا وَارْعَوَتْ خَجَلاً
*وَلَا انْثَنَى أَوْ بَدَا إِلاَّ لَهُ وَاعْتَرَفَتْ *شَكْلٌ تَكَوَّنَ مِنْ شَمْسٍ وَمِنْ غُصْنِ.[1]

من ملفوظ هذه الأبيات الشعرية، يتجلى وصف الشاعر لثغر النبي – صلى الله عليه وسلم– بأنه مفضض على وجنتيه اللتين شبههما بالدينار في استدارتهما، ووسمه بهذه الصفة "مفضض" للدلالة على أنه–صلى الله عليه وسلم– لا ينطق عن الهوى، وإنما ينطق بالوحي الذي يوحى إليه عن طريق الروح القدس جبريل –عليه السلام– من الخالق –سبحانه وتعالى–، وفوق هذا فهو لا ينطق إلا بالشهد والراح والسلسال...، وهي مواد تنعش السامع وتجد لديه حلاوة مما يكسبه الراحة والطمأنينة والسكينة.

لينتقل الشاعر بعد ذلك إلى وصف قوام محبوبه وقده، الذي يشبهه بالغصن المستقيم المتميز عن باقي الأغصان في الشجرة الواحدة، لأنه غير معوج ولا منعطف ولا فيه نتوء، وبلغ محبوبه من الكمال أن أشبه الشمس في نوره وصفائه وجلاء سريرته، والشاعر إذ يقدم هذا الوصف يريد أن يبين للمتلقي أن محبوبه (الرسول –صلى الله عليه وسلم–) إنسان كامل مبرء عن كل ميل أو خطأ، معصوم عن كل ذنب وخطيئة، كامل في خلقته وخُلُقِهِ كما تدل على ذلك المتواليات (سحر المقلة، فتك الجفون، لين القامة).

[1]– ابن الخلوف: ديوان جني الجنتين في مدح خير الفرقتين. ص316–317.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويمضى ابن الخلوف في تقديم صورة للنبي – صلى الله عليه وسلم– أشبه بشعر التكسب الذي استشرى في الشعر العربي، وبلغ مبلغا متقدما في اعتماده من قبل الشعراء، ولكن تكسبه هذا ليس طمعا في المال أو الجاه، وإنما طمعا في حبه – صلى الله عليه وسلم– وشفاعته يوم لا ينفع مال ولا بنون، إذ يقول:

*بِالرُّوحِ فِي حُبِّهِ قَامَرْتُ حِينَ بَدَا *مُضَرَّجُ الخَدِّ لَدِنُ الْعَطْفِ تَحْسِبُهُ
*مِكْحَلُ اللَّحْظِ صَافِي الْجِيدِ سَنَّ لَنَا *قَامَتْ بِتَصْدِيقِ دَعْوَاهُ الأَدِلاَّتُ.
*إِذْ خَرَّجَتْهُ عَنِ الْخَدِ الرِّوَايَاتُ *لَمَّا أَحَاطَتْ لِلْأَصْدَاغِ هَالاَتُ.
*يَا مَنْ رَأَى الْبَرْقَ تُبْدِيهِ الثَّنَايَاتُ *لَهَا مِنْ خَالٍ أَنْ أَعْجَمَتْ نَقْطَاتُ.
*كَذَلِكَ الْحَرْبُ كَرَّاتٌ وَفَرَّاتٌ *وَهَكَذَا السُّمْرُ فِيهِنَّ الْمَنِيَّاتُ.
*لَيْلٌ وَصُبْحٌ وَنَيْرَانٌ وَجَنَّاتٌ * تَدْعُو بِأَيِّ حَالٍ فِي الْجَفْنِ فُتُوَّاتٌ.[1]

يتبدى للمتلقي من هذه الصور الشعرية المنتظمة حب الشاعر للنبي – صلى الله عليه وسلم– وتعلقه به في صورة هي أقرب ما تكون إلى التجربة الصوفية التي يتعالق فيها الروحي بالحسي، ثم إن الشاعر لا يمارس قمارا عاديا من أجل الظفر بحب المحبوب، وإنما يخالف العادة بأن يقامر بروحه، وهي قمة الحب الصوفي، ويدل على هذا أيضا حضور المصطلحات الصوفية نحو (مضرج الخد، مكحل اللحظ، صافي الجيد...).

ومن المعلوم أن لعلم التصوف مباحث رئيسية، حيث يبحث في الروح والقلب والعقل والنفس[2]، وقد وظف الشاعر بعضا من هذه المباحث ليظهر شدة حبه للنبي – صلى الله عليه وسلم–، ففي لفظة "مضرج الخد" تقع المكاشفة، لأن «وجنات الحبيب الموردة تمثل ذات الله منكشفة في صفاته»[3]، أما لفظة "اللحظ" فقد استخدمت عوضا عن لفظة "العين" لتدل على الملاحظة القلبية، « فالمريد الصادق ينظر بعين بصيرته لا بعين بصره»[4]، ويقرن لفظة "الجيد" بصفة "الصافي" ليبين أن هذه المكاشفة والملاحظة صادقة صافية لا ريب فيها ولا شك.

ويواجهنا في هذه الوحدة الشعرية خطاب صريح يبين أن الممدوح هو الرسول – صلى الله عليه وسلم– حين يقول: قامت بتصديق دعواه الأدلات، وقد قصد الشاعر إلى هذا التصريح ليبين للقارئ أن

---

[1]– ابن الخلوف: ديوان جني الجنتين في مدح خير الفرقتين. ص317.

[2]– سعيد حوى: تربيتنا الروحية "التصوف على ضوء الكتاب والسنة. دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة. ط7. 2004م. ص43.(بتصرف)

[3]– ر. نيكلسون: الصوفية في الإسلام. تر: نور الدين شريبة. مكتبة الخانجي: القاهرة. ط2. 2002م. ص102.

[4]– حسن الشرقاوي: معجم الصوفية. مختار للنشر والتوزيع: القاهرة. ط1. 1987م.ص243.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

هذا المحبوب صدق دعواه فريق وكفر بها فريق آخر، وهو ما يزداد جلاء ووضوحا من خلال الثنائيات الضدية المضمنة في البيت الأخير (ليل/ صبح، جنات/ نيران)، بمعنى أن الفريق الأول (الذي صدق الدعوة) في الجنة، وأما الفريق الآخر (الذي كذب الدعوة وكفر بها) فهو في النار، ويشير أيضا إلى أن الفريق الأول انتقل من الضلالة (الليل) إلى الهدى (صبح)، وأما الفريق الكافر فعلى العكس من هذا.

يواصل ابن الخلوف وصفه للمحبوب بشد المتلقي إلى تجربته وكسر أفق توقعه عن طريق زرع مجموعة من المثيرات الفنية واللغوية والأسلوبية، والتي من شأنها تعميق تجربته المدحية الغزلية، وتقديم صورة متميزة للنبي –صلى الله عليه وسلم–، كما هو الحال في ملفوظ الأبيات الشعرية الآتية:

*مِنْ ثَغْرِهِ فِي دُجَى الشَّعْرِ ابْتِسَامَاتُ *يَاكَمْ بَدَتْ بِعُيُونِ النَّاسِ حَبَّاتُ.
*تُفَنِّدُ عَنْهَا ثُغُورُ لُؤْلُؤِيَّاتٌ *وَالْبَدْرُ وَالشَّمْسُ فِي خَدَّيْهِ زَهْرَاتُ.
*وَلَمْ أَخْلُ أَنَّهَا لِلْعَطْفِ وَاوَاتُ *فَلِلْغُصُونِ كَمَا قَدْ قِيلَ مَيْلَاتٌ.
*إِلَّا لِكَسْرِ الْحَشَا تِلْكَ الْإِمَالَاتُ *فَجِئْنَ بِالْقَطْعِ لِلْأَصْدَاغِ هَمْزَاتُ.
* أَنَّ الْجُفُونَ لَهَا كَالْبَيْضِ فَتْكَاتُ *أَنَّ الْقُدُودَ لَهَا كَالسُّمْرِ رَشْفَاتٌ.[1]

يقدم الشاعر في هذا الخطاب الشعري صورة للنبي – صلى الله عليه وسلم– مركزا فيها عَلى الثغر الذي وجدنا له وصفا عميقا في الوحدة الشعرية الموالية للمطلع، وهذا التركيز على الثغر مرده إلى أن الشاعر يريد أن يبين للقارئ أن محبوبه صادق عدل، لا ينطق إلا بالحق وبما يوحى إليه من الذات العليا، ثم إن الثغر منطلق الكلام وموطن البلاغة والفصاحة، والنبي الكريم – صلى الله عليه وسلم– أفصح العرب وأبلغهم على الرغم من أميته، كما نلمس في هذا المقطع أيضا ربط الشاعر بين ممدوحه وبين الشمس والبدر مرة أخرى ليؤكد كمال ممدوحه وعصمته عن الزيف والخطأ، وليبين صفاء سريرته ونوره المستمد من نور الله – عزوجل–.

تتجلى من هذه الوحدة الشعرية أيضا ثقافة الشاعر اللغوية والدينية، حيث استعار بعض المصطلحات الخاصة بالقراءات القرآنية ليعمق فكرته نحو (الكسر، الإمالة، همزة القطع، العطف... وغيرها)، واستخدام الشاعر لها كان من باب العلم بالقراءات القرآنية من جهة، وتقديم صورة متفردة عن محبوبه، فليس فيه ميل ولا اعوجاج في قامته وقده، وحتى القطع الوارد في الأصداغ يزينها لينماز عن غيره من البشر.

ولأن الشعر هو عمل في اللغة أولا وأخيرا، وهو تجربة لغوية تمثل علاقة الشاعر بذاته وبالكون عبر هذه الوسيلة، فإن التمكن اللغوي لابن الخلوف يتمثل من خلال الجرأة اللغوية، والتي تتجلى في

[1]– ابن الخلوف: ديوان جني الجنتين في مدح خير الفرقتين. ص318.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

محاولة الشاعر استنباط معجمه الخاص عبر الاستفادة من تقنيات عدة، أهمها الاستعانة بالمصطلحات الصوفية والنهل من معجم الطبيعة وألفاظها، وكذلك ألفاظ علم اللغة وعلم القراءات.

وقد يعبر ابن الخلوف عن المحبوب باستخدام رموز أخرى تتقاطع مع الرموز السابقة وهي: القمر، الغصن، الشمس، الحسن، وهي في الحقيقة رموز مكررة على كامل تائيته، والتي ظهرت فيها تقنية التكرار بشكل واضح من مطلع القصيدة إلى ختمها، مما يشير إلى قصدية واعتماد الشاعر على هذه التقنية التي أسهمت بشكل فعال في أداء وظائف دلالية، كما هو الحال في قوله في ملفوظ الأبيات الشعرية الأخيرة من القصيدة:

*صَيْدُ السُّرَى وَالضِّبَاءُ الحَاجِرِيَاتُ * بِاللَّيْنِ وَالْحُسْنِ أَقْمَارٌ وَبَانَاتٌ

*لِذَا اسْتَدَارَتْ لَهُ الْأَقْمَارُ دَارَاتٌ *مِنْ وَجْهٍ فِي لَيَالِي الشِّعْرِ قَمْرَاتٌ

*غُصْنًا عَلَتْهُ مِنَ الْأَزْهَارِ وَرْدَاتٌ *نَهْجُ النِّفَارِ وَلِلْغَزَلِ نَفَرَاتٌ.[1]

إن المتأمل لهذه المقطوعة يجد اعتماد الشاعر على إعادة الفكرة المطروقة في الوحدات الشعرية السابقة عن طريق ألفاظ مخصوصة (القمر، الحسن، الغصن)، ليبين سر جمال الحبيب المصطفى – صلى الله عليه وسلم– الذي استدارت له الأقمار وعلته من الأزهار وردات.

ثالثا– الثنائيات الدلالية لخطاب القصيدة.

تسيطر مقولة الحب والعشق الروحاني على الخطاب الشعري لتائية ابن الخلوف القسنطيني، وتعزز هذه المقولة ثنائيات كثيرة وحقول دلالية أيضا، تنقل النص من حالة الحب العادي إلى حب صوفي مقترن في كثير من المواضع بنزعة مدحية تكسبية طمعا في حب وشفاعة المحبوب، لتشكل توهجا شعريا ونصاعة أسلوبية وإبداعا فنيا متفردا عن قصائد المديح الأخرى، وتتمثل هذه المقولة في ثنائيتين هما:

1– ثنائية المادح (الشاعر) والممدوح (الرسول – صلى الله عليه وسلم–):

تعتمد هذه الثنائية على جدلية صوفية تتمثل في المديح النبوي، حيث ظهر ابن الخلوف على صورة دينية متفردة، وظهر خطابه المدحي للنبي – صلى الله عليه وسلم– مملوءا بالصور الروحية والمعاني السامية المعبرة على التجربة الروحية له، فقد ظهر محبا مقدرا لجمال النبي – صلى الله عليه وسلم– ومستغيثا بشخصه الكريم، لقد تغنى بالجمال المحمدي وأعلاه فوق كل جمال في الكون، مستعملا لذلك جملة من المصطلحات الصوفية (غصن، البدر، اللحظ، مضرج الخد، مكحل اللحظ، هلال حسن...)، حيث يقول:

*بِالرُّوحِ فِي حُبِّهِ قَامَرْتُ حِينَ بَدَا *مُضْرَجُ الْخَدِّ لَدِنُ العَطْفِ تَحْسِبُهُ

[1]– ابن الخلوف: ديوان جني الجنتين في مدح خير الفرقتين. ص318.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

*مِكْحَلُ اللَّحْظِ صَافِي الْجِيدِ سَنَّ لَنَا *قامَتْ بِتَصْدِيقِ دَعْوَاهُ الأَدِلَّاتُ
*يَا مَنْ رَأَى الْبَرْقَ تُبْدِيهِ الثَّنَايَاتُ *لَهَا مِنْ خَالٍ أَنْ أَعْجَمَتْ نَقْطَاتُ.[1]

2- ثنائية المتغزل (الشاعر) والمحبوب(الرسول – صلى الله عليه وسلم-):

ترتكز هذه الثنائية على قطب الشاعر بوصفه متغزلا ومحبا كما شاع في القصيدة العربية التقليدية، حيث يمثل العاشق الولهان الحريص على وصف محبوبه بأجمل الأوصاف وأقدرها على تصوير جمال المحبوب، وذكر صفاته الجمالية، ففي خطابه الشعري يشتكي ألم غرامه وطلب القرب من محبوبه وعدم الابتعاد عنه، أما الطرف الثاني فهو المحبوب، الممثل دوما في الرسول الأعظم – صلى الله عليه وسلم- الذي يتميز بالجمال المطلق الكامل والتفوق على جميع البشر، إذ يصفه الشاعر بكل دقة متطرقا إلى كل صفة جمالية فيه، مركزا على بعضها دون الآخر لغاية قصدية تخدم تجربته الشعرية، حين يقول:

*وَلِلْجَيْشِ هِلَالٌ تَمَّ نَيْرُهُ * وَلِلْثَنَايَا عَذِيبٌ لَاحَ بَارِقُهُ
*وَلِلْحَوَاجِبِ نَوْنَاتٌ مُعَرَّقَةٌ * وَلِلَّوَاحِظِ كَرَّاتٌ يَفِرُّ لَهَا
*وَلِلْمَعَاطِفِ أَفْنَانٌ فَتَيْتَ بِهَا *مَلِيكُ حُسْنٍ تَرَاءَ فَوْقَ وَجْنَتِهِ
*وَافَتْ إِلَيْنَا بِعَزْمِ الوَسْلِ مُقْلَتُهُ *وَصِرْتُ أَرْجُو اِهْتَدَا قَلْبٌ تُضَلِّلُهُ.[2]

وللخطاب الشعري مقوماته الأساسية والمركزية التي تؤدي شاعريتها دون عناء أو تكلف فتربط بكلمة بين وجدان المتلقي وبين رؤية الباث المختزنة في الفكرة الشعرية، الى جانب ذلك تحقق وحدتها وتميزها. فالخطاب الشعري العربي يختلف باختلاف الرؤى ويتعدد بتعدد المناهل والمشارب، كما تفعل فيه البيئات المتعددة فعلها، فيجيء ذلك الخطاب فائحا بتربة حب النبي والتغني بصفاته الخلقية والخلقية.

خاتمة.

وفي الختام، فإن تائية ابن الخلوف القسنطيني تمثل نموذجا عن نزوع القصيدة الجزائرية إلى المديح النبوي والتي روت لنا قصة حب حقيقية لسيد الخلق أجمعين محمد – صلى الله عليه وسلم-، ولقد تضمن خطاب القصيدة جماليات لغوية وأسلوبية عديدة عكست في مجموعها صورة الجمال الخلقي الذي يتميز به الممدوح الرسول – صلى الله عليه وسلم- عن البشرية جمعاء، ولقد كانت تختبئ وراء بنية الخطاب وملفوظاته صورة عشقية متفردة غلب عليها الطابع الصوفي الروحاني.

[1]- المصدر نفسه.ص317.

[2]- ابن الخلوف: ديوان جني الجنتين في مدح خير الفرقتين.ص315-316.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لقد استعان ابن الخلوف لتقديم هذه الصورة المتميزة عن النبي – صلى الله عليه وسلم– بجملة من الآليات اللغوية والصوفية، وليكسر أفق توقع القارئ لتائيته، حيث يخيل إليه من المطلع أنها قصيدة غزلية تتغنى بمفاتن المرأة ومحاسنها، خاصة وأنه اتخذ من جمال الطبيعة ومكوناتها مادة خصبة لتصوير جمال محبوبه، وتقوم تائية ابن الخلوف في حقيقتها على فكرة الحب الممثل في المديح والغزل النبوي، وفي النص جملة من البؤر الدلالية التي تضافرت في تشكيلها ملخصة بؤرة طلب الشفاعة والوصال والحب من المحبوب – صلى الله عليه وسلم– وبؤر الطمع في نيل الشفاعة والفوز في الدنيا والآخرة.

وبهذا فإن الخطاب الشعري الجزائري ليس عقيما عن تقديم صورة إيجابية عن سيرة المصطفى – صلى الله عليه وسلم– وأخلاقه وخلقه وصفاته، وليس ابن الخلوف القسنطيني إلا واحد من ألوف الشعراء والأدباء الجزائريين ممن لم يتخلفوا عن المساهمة الجادة في كتابة السيرة النبوية، والنظم لها في قوالب شعرية مادحة لشخصه الكريم –صلى الله عليه وسلم– ولسيرته المتفردة، وتائية ابن الخلوف نص شعري مدحي بامتياز، لأنه استطاع أن يقدم صورة متفردة عن سيد البشرية عليه أفضل صلاة وأزكى تسليم.

قائمة المصادر والمراجع:

1– إحسان عباس: فن الشعر. دار بيروت: لبنان. 1955م.

2– إميل ناصف: أروع ما قبل في مديح الرسول. دار الجيل: بيروت.

3– حسن الشرقاوي: معجم الصوفية. مختار للنشر والتوزيع: القاهرة. ط1. 1987م.

4– ابن الخلوف القسنطيني: ديوان حني الجنتين في مدح خير الفرقتين .تح: العربي دحو . اتحاد الكتاب الجزائريين : الجزائر. 2004م.

5– ر. نيكلسون: الصوفية في الاسلام. تر: نور الدين شريبة. مكتبة الخانجي: القاهرة. ط2. 2002م.

6– سعيد حوى: تربيتنا الروحية "التصوف على ضوء الكتاب والسنة. دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة. ط7. 2004م.

7– صبحي حموي: المنجد في اللغة العربية المعاصرة. دار المشرق: بيروت. ط2. 2001م.

8– عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز. تح: محمد عبده. دار المعرفة: بيروت. 1978م.

9– عز الدين إسماعيل: الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية. ط3. دار العودة ودار الثقافة: بيروت. 1981م. .

10– كاميليا عبد الفتاح: الأصولية والحداثة في شعر حسن محمد حسن الزهراني "دراسة تحليلية نقدية". دار المطبوعات الجامعية: الإسكندرية.

11– كمال أبو ديب: في الشعرية. مؤسسة الأبحاث العربية: بيروت. ط1. 1987م.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

12- ابن منظور: لسان العرب. ج7. تح: خالد رشيد القاضي. دار صبح: بيروت. ط1. 2006م.
13- محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي: صحيح البخاري. مج3. تح: مصطفى ديب البغا. دار ابن كثير: بيروت. ط3. 1987م..
14- مصطفى ناصف: الصورة الأدبية. دار الأندلس: بيروت. ط3. 1983م.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com